

الدرس الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

الشريط الثاني :

نواصل القراءة في الفصل الذي كتبه الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله بعنوان
فصول وكرليات من أصول التفسير وكرلياته لا يستغني عنها المفسر للقرآن :

يقول الشيخ رحمه الله :

[ومن أصوله أن الألف واللام الداخلة على الأوصاف وعلى أسماء الأجناس تفيد استغراق جميع ما
دخلت عليه من المعاني] .

هذه قاعدة عظيمة من القواعد المهمة في فهم كلام الله عز وجل وهي تتعلق بـ(أل) التعريف إذا دخلت
على الأوصاف أو على أسماء الأجناس فإنها في هذه الحالة تفيد الاستغراق أي استغراق ما يشمله هذا
الوصف من معنى أو ما يدخل تحت هذا الجنس من أفراد فهي تستغرق المعاني التي يحتملها هذا الوصف
وتشمّلها جميعاً وأيضاً إذا دخلت على اسم الجنس فإنه تستغرق كل فرد من الأفراد الداخلين تحت هذا
الاسم .

وعليه إذا رأيت (أل) في القرآن داخلة على وصف فإن عليك أن تثبت كل ما يحتمله هذا الوصف من
معان، ودلالات .

مثال: قول الله تعالى {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ} "ال" التعريف هنا دخلت على وصف التقوى "ال
" هنا تفيد الاستغراق لكل معاني التقوى ودلالاتها .

المتقين لله ، المتقين عذاب الله ، المتقين محارم الله ، المتقين الله في فعل أوامره، كل ما تحتمله هذه الكلمة
من معان تثبته لأن "ال" تفيد الاستغراق .

ثم تلاحظ أمراً آخر وهو الجزاء المرتب على هذا الوصف {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ} هذا جزاء مرتب
على هذا الوصف ، فما حظ الإنسان من الجنات والنهر؟

والجواب على ذلك: أن حظ الإنسان من هذا الجزاء بحسب حظه من هذا الوصف ، فكلما عظم حظه
من تقوى الله عز وجل عظم حظه من هذا الثواب ، وكلما نقص حظه من التقوى نقص هذا الثواب
بحسب ذلك ، وإذا فقدت التقوى فقد هذا الثواب المترتب عليها ، فلا حظ هذه الفائدة من هذه
القاعدة العظيمة .

وما ذكرناه مثال ونظائره في القرآن كثيرة:

مثل قوله تعالى: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}.

كلّ هذه أوصاف دخلت عليها "ال" للتعريف فهنا تثبت ما يشتمله هذا الوصف من المعاني :

فمثلا المسلمين ماذا يشمل وصف الإسلام الصلاة والزكاة وفعل الأوامر طاعة الله ، والإيمان يشمل العقائد الباطنة الإيمان بالله وبالملائكة وبالكتب والرسول أي بكل ما أمرهم الله تبارك وتعالى من الإيمان به ، أخذنا هذا من "أل" التي تفيد الاستغراق لأنها دخلت على وصف فتستغرق كلّ ما يدلّ عليه هذا الوصف، أو ما يحتمله هذا الوصف من معنى.

أيضا الآيات في الصّدق ، وفي البر ، وفي الإحسان .

فكل ما دخلت "ال" على وصف من الأوصاف فعليك أن تثبت كل ما يحتمله هذا الوصف من معنى . وذكرت لكم أن هذه القاعدة يترتب عليها قاعدة أخرى وهي الحكم إذا ترتب على وصف فحظ الإنسان من هذا الحكم بحسب حظه من الوصف ، إن زاد هذا الوصف زاد الحكم والجزاء، وإن نقص ، وإن فُقد فُقد .

وهذا مثال دخول (أل) التعريف على الأوصاف .

الشق الثاني من القاعدة " دخول "ال" التعريف على أسماء الأجناس فنأخذ مثالا على دخول "ال" التعريف على اسم الجنس .

يقول الشيخ رحمه الله: [وعلى أسماء الأجناس تفيد استغراق جميع ما دخلت عليه من المعاني].

اسم الجنس مثل إنسان ، حيوان جنس ، رجل جنس ، فإذا دخلت "ال" التعريف على شيء من هذه الأجناس ، أفادت الاستغراق ، فإذا قيل "الإنسان" أي جنس الإنسان ، فليس المراد شخصا معينا ، وإنما المراد جنسه فيدخل تحت الجنس كل فرد من أفراد الإنسان .

فمثلا قوله تعالى: {وَالْعَصْرِ ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ} هذا شامل لجميع أفراد الإنسان لا نستثني منه إلا من استثناهم الله في قوله {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}.

مثال آخر :

{إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا} هذا يشمل كلّ فرد من أفراد الناس لا يخرج من هذا أحد إلا من استثناهم الله بقوله {إِلَّا الْمُصَلِّينَ} "أل" عندما دخلت على اسم الجنس أفادت الاستغراق لكل فرد من أفراد الجنس .

وأيضاً من الأمثلة قوله تعالى: **{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ}** فاللفظ متناول لكل فرد من أفراد الإنسان ،
فالقاعدة هنا أن "ال" تفيد الاستغراق ولذا كل إنسان خلق في كبد .

وهنا بمناسبة هذا المثال أحببت أن أطلعكم على فائدة عظيمة جداً في معنى قوله **{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ}** ما هو الكبد الذي يلحق الإنسان وفي أي وقت يلحقه هل يلحقه في صباه ، أو في كبره ، أو في
قبره ، أم في حشره ؟ فهناك نقل عظيم للقرطبي رحمه الله في كتابه التفسير عند تفسير لهذه الآية يوضح
معنى الآية وهو نصّ عظيم ومؤثر قال القرطبي رحمه الله : أول ما يكابد الإنسان قطع سرتة ، ثم إذا قمط
قماطاً وشدّ رباطاً ، يكابد الضيق والتعب ، ثم يكابد الارتضاع ، ولو فاتته لضاع ، ثم يكابد نبت أسنانه
، وتحرك لسانه ثم يكابد الفطام الذي هو أشد من اللطام ، ثم يكابد الختان والأوجاع والأحزان ، ثم
يكابد المعلم وصولته والمؤدب وسياسته والأستاذ وهيبته ، ثم يكابد شغل التزويج والتعجيل فيه ، ثم
يكابد شغل الأولاد والخدم والأجناد ، ثم يكابد شغل الدور وبناء القصور ، ثم الكبر والهرم وضعف الركبة
والقدم في مصائب يكثر تعدادها ونوائب يطول إيرادها من صداع الرأس ووجع الأضراس ورمد العين
وغمّ الدّين ووجع السنّ وألم الأذن ويكابد محناً في المال والنفس مثل الضرب والحبس ولا يمضي عليه يوم
إلا يقاسي فيه شدة ولا يكابد إلا مشقة ، ثم الموت بعد ذلك كله ، ثم مساءلة الملك وضغطة القبر
وظلمته ، ثم البعث والعرض على الله إلى أن يستقرّ به القرار إما في الجنة وإما في النار قال الله تعالى **{لَقَدْ**
خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ} فلو كان الأمر إليه لما أختار هذه الشدائد .

فبمناسبة هذا المثال أحببت الوقوف عليه للفائدة .

قال الشيخ رحمه الله :

**ومن كليات القرآن أنه يدعو إلى توحيد الله ومعرفته بذكر أسماء الله وأوصافه
وأفعاله الدالة على تفرد بالوحدانية ، وأوصاف الكمال ، وإلى أنه الحق ، وأن
عبادته هي الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ويبين نقص كل ما عبد من
دون الله من جميع الوجوه .**

من دلائل التوحيد ما بينه الله من نقص كل ما عُبد من دون الله ، تجدد في الآيات كثيراً ما يبين نقص ما
عبد من دون الله .

وانظر هذا المثال من ضمن أمثلة كثيرة جداً مما يبين حقارة ما يتعلق به المشركون ويدعونهم من دون الله
يقول الله تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ**
اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ} فهذا فيه بيان حقارة
الأوثان ومن يلجأ إليه ويعتمد عليه من دون الله والذباب من أحقر الحيوانات وأخسها ومع ذلك فلا
أحد يملك أن يخلق ولو ذباباً فهذه من طرق القرآن في إبطال الشرك .

وفي قول إلیاس لقومه: { أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ، اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ } أي العقول فهو یبین لهم حقارة الذي یعبدونہ ویلتجئون إلیه من دون الله سبحانه وتعالی ، وهذا له نظائر كثيرة في القرآن الكريم .

والشیخ رحمه الله توسّع في ذكر أنواع الأدلّة على تقرير التوحید في كتابه "القواعد الحسان" وذكر أنواعاً كثيرة وذكر تحتها أنواعاً من الأدلة الدالة على هذه الأنواع فمن شاء فليرجع إلیه .
هذا تفعید في بیان التوحید ودلالات القرآن الكريم على توحید الله جل وعلا .

والتوحید هو أعظم المقاصد وأجل الغايات وأنبّل الأهداف على الإطلاق، ومن حكمة الله تعالى أن الأمر كلما كانت حاجة العباد إلیه أشد فإن طرق تحصيله ووسائل نیله وسبل الوصول إلیه تكون أكثر من غیره ، والله الحکمة البالغة في خلقه وتأمّل هذا جيداً فيما یحتاجه الناس في حياتهم ومعیشتهم .

تأمل هذا في حاجة الناس إلی الهواء وإلی الماء وإلی الطعام وإلی اللباس ، هذه الأمور هي من حاجيات الناس ، وكلکم یعلم أن حاجة الإنسان إلی الهواء أشد من حاجته إلی الماء وحاجته إلی الماء أشد من حاجته إلی الطعام ، فلما كانت حاجة الإنسان إلی الهواء أعظم وأشد كانت سبل نیل الهواء ووسائل تحصيله أيسر من الماء فالهواء معك أينما كنت لأنك لا تستطيع الاستغناء عنه للحظات، وحاجتك إلی الماء دون ذلك فوسائل تحصيله دون وسائل تحصيل الهواء ، وحاجتك إلی الطعام دون ذلك فوسائل تحصيله دون وسائل تحصيل الماء ، فالأمر كلما كانت الحاجة إلیه أشد كانت وسائل نیله وسبل تحصيله أكثر .

والتوحید حاجة الناس إلیه هي أعظم الحاجات وضرورته إلیه أعظم الضرورات ووالله إن حاجة الناس إلی التوحید أعظم من حاجتهم إلی الهواء ومن حاجتهم إلی الماء ومن حاجتهم إلی الطعام والشراب واللباس .

وعدم تحصيل هذه الأمور یقطع الإنسان عن الدنيا لكن انعدام التوحید یقطع الإنسان عن خیري الدنيا والآخرة ، وبهذه یعلم أن حاجة الناس إلی التوحید أعظم من سائر الأمور التي یحتاجونها ، ولما كان التوحید بهذا القدر وشأنه بهذه المكانة كانت دلائله وبراهینه ووسائل معرفته أكثر . وكما قيل :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

فدلائل التوحید كثيرة وإذا نظرت كتاب الله العزيز وما فيه من البراهین والدلائل على توحید الله سبحانه وتعالی تجدها لا حصر لها وتجدها متنوعة تنوعاً كبيراً وتحت كل نوع منها یدخل أفراد عديدة من براهین التوحید ودلائله وقد قال أهل العلم في ذلك قولاً كلياً " أن القرآن كله من أوله إلی آخره في تقرير التوحید وبيان عظم شأنه وجلالة قدره وعظم ثواب أهله وعظم العقوبة التي أعدها الله لمن تركه وخالفه .

فالقرآن كله توحيد، فاتحة الكتاب كلها توحيد، وسورة البقرة ومما يليها من السور إلى سورة الناس كل ذلك توحيد؛ إما بيان التوحيد وأنواعه وأفراده، وإما بيان ضده والتحذير منه، وإما بيان أعمال أهل التوحيد وصفاتهم وخلالهم الكريمة، وإما بيان خصال أهل الشرك وخصالهم الذميمة وإما بيان لقصص أهل التوحيد وأخبارهم وما حصل لهم من نصر وتمكين وتأيد عبر التاريخ، وإما بيان لقصص أهل الشرك وما حصل لهم من العقوبات المتنوعة والمثالات المتعددة، وإما إخبار من الله لما أعده لأهل التوحيد من الثواب العظيم والنعيم المقيم يوم القيامة ، وما أعده لمخالفي التوحيد من العقاب الأليم يوم القيامة ، فالقرآن كله في التوحيد والتدليل عليه وبيان عظم شأنه ورفيع مكانته ، وعليه فليتنبه مطالع القرآن أن مقصوده الأعظم وزبدة ما فيه تقرير التوحيد قال تعالى: { أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ } ، يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ } .

قوله: { بِالرُّوحِ } أي بالوحي . يتنزل الوحي بتقرير التوحيد ولبیان التوحيد والدعوة إليه والتحذير من ضده وعندما تطالع دلائل التوحيد في القرآن تجدها كثيرة والشيخ هنا ينبهك تنبيهاً على هذا الأمر فيذكر لك بعض الأمثلة ، وشيئاً من أنواع الأدلة على التوحيد فيقول رحمه الله : [ومن كليات القرآن أنه يدعو إلى توحيد الله ومعرفته] .

الشرح :

من أصول القرآن العظيمة ومقاصده الكريمة وغاياته الرشيدة الدعوة إلى توحيد الله وتنوع دلائل القرآن على هذا التوحيد .

ومن أمثلة هذا التنوع يقول الشيخ :

بذكر أسماء الله وأصافه وأفعاله الدالة على تفرد بالوحدانية وأصاف الكمال .

هذا نوع من أنواع دلالة القرآن على التوحيد على وجوب إخلاص العبادة لله تبارك وتعالى . فيستدل الله تبارك وتعالى على إفراده بالعبادة بذكر أسمائه وصفاته خذ مثالا على ذلك :

آية الكرسي الله جلّ وعلا بدأها بالتوحيد الذي هو المقصد الأساس والغاية التي خلق لها الناس، قال تعالى: { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ } هذا التوحيد، ما هي الدليل عليه ؟ أسمائه الحسنى وصفاته العظيمة { الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ } .

خمسة أسماء حسنى لله وما يزيد على العشرين صفة في هذه الآية التي هي أعظم آية في القرآن الكريم . وجميع هذه الأسماء والصفات التي ذكرت استدلالاً بها على وجوب التوحيد وإخلاص الدين له .

{اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} أي لا معبود بحق سواه .

ومن دلائل توحيده أنه الحي وأنه القيوم وأنه الذي لا تأخذه سنة ولا نوم إلى آخر الأوصاف والأسماء التي ذكرت في هذه الآية الكريمة فهذه كلها دلائل وبراهين على وجوب إخلاص التوحيد لله تبارك وتعالى .

ونظير ذلك في قوله في آخر سورة الحشر قال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ، هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ، هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} ذكر سبع عشرة اسما له سبحانه وتعالى وكل هذه الأسماء المتضمنة لأوصاف الكمال ونعوت الجلال براهين على أنه لا إله إلا الله دلائل على وجوب إخلاص التوحيد لله .

يوسف عليه السلام لما خاطب صاحبي السجن وحذرهما من الشرك ، استخدم هذا النوع من الدليل {يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَأَيْتَ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} ذكر لهم أسماء الله الدالة على وجوب توحيده وإخلاص الدين له سبحانه وتعالى وترى هذا في القرآن كثير .

مثل قوله تعالى: {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} هل لله سمي؟ هل لله شريك في أسمائه وصفاته وجلاله وجماله وعظمته؟ والاستفهام في الآية بمعنى النفي فالجواب لا سمي له .

فإذا كان لا سمي له فلم يُدعى غيره ولم يُعبد سواه ولم يلتجأ إلى غيره سبحانه وتعالى، فهذا نوع من دلالة القرآن الكريم على توحيد الله .

ومن ذلك استدلاله تبارك وتعالى ربوبيته وتفرد بالخلق والإيجاد والإنعام على وجوب أفراد الدين له كقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ، الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} فلا تجعلون له شريكا في العبادة وأنتم تعلمون أنه لا خالق لكم غير الله فهنا ذكر من دلائل توحيده ووجوب العبادة له ربوبيته تبارك وتعالى ، وخلق الأشياء وإنزاله للمطر وإنباته للزروع ورفعها للسماء كل هذا من دلائل التوحيد .

وأیضا قوله تعالى: {وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} ذكر ربوبيته مستدلا بها على توحيده وإخلاص العبادة له فهذا يأتي في القرآن كثيرا .

أیضا من أنواع الأدلة على التوحيد ما ذكره المصنف من قوله: وأنه الحق وأن عبادته هي الحق وأن ما يدعون من دون هو الباطل وذلك في قوله تعالى {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّبُ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ} ، وقول الله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} ، هذه كلها دلائل على توحيد الله تبارك وتعالى أنه الحق وأن عبادته هي الحق وأن عبادة من سواه هي أبطل الباطل وأضل الضلال .
ولهذا كلمة التوحيد " لا إله إلا الله " معناها لا معبود حق إلا الله .

لا نافية للجنس تحتاج إلى اسم وخبر .

اسمها : إله .

خبرها محذوف ، بعض الناس يخطئ يقول لا إله موجود إلا الله .

انظر ماذا يترتب على تقدير موجود خبرا ل " لا " النافية من فساد في فهم التوحيد فيكون المعنى كل إله موجود عبث بحق أو بباطل فهو الله .

ولهذا لا يجوز أن يقدر خبر "لا" النافية إلا " حق " فيكون التقدير لا إله حق إلا الله .

ما دليل هذا المقدر ؟

دليله : {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} ، وكان ابن عمر يقول في تليته " لبيك إله الحق، لبيك إله الحق، لبيك إله الحق " فما سوى الله جل وعلا فعبادته باطلة كائنا من كان لأن العبادة حق خالص لله لا يجوز صرفها لغيره سبحانه وتعالى ، فهذا نوع من أنواع دلائل التوحيد أن الله تعالى الحق وهو المستحق بأن يعبد وأن يؤله وأن يذل له ويخضع وأن تصرف له الطاعة ، وأن ما سوى الله لا يستحق من العبادة مثقال ذرة ، لأنه ليس له أي مشاركة للرب العظيم والخالق الجليل لا في الملك وليس له أي مشاركة في شيء من الملك وليس له معاونته لله تنزه الله وتقديسه عن ذلك وتأمل هذا المعنى الذي أشير إليه في سورة سبأ { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ، وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } .

وتأمل معي هذه الآية الكريمة في بيان التوحيد وإبطال الشرك وهذه الآية كما وصفها بعض أهل العلم قطعت شجرة الشرك من عروقها واجتثتها من أصولها، بمعنى أنه لا حجة يدلي بها مبطل في تقرير الشرك إلا وفي هذه الآية اجتثاث لها وقطع لها من أصولها.

وتأمل من يدعى من دون الله يدعى في إحدى حالات أربعة ذكرت في الآية فإذا وجدت هذه الحالات ، أو وجد شيء منها يستحق أن يدعى ولننظر إليها تدريجيا كما جاءت في الآية :

الأولى : أن يكون هذا الذي يدعى مالكا ملكا استقلاليا ولو لشيء قليل من هذا الكون بدون تمليك الله له .

فهل في المخلوقات أيّ كانت في الناس في الجن في الملائكة، هل فيهم من يملك من هذا الكون ولو مقدار ذرة ملكا استقلاليا ؟ الجواب لا . فإن كان هناك من يملك ملكا استقلاليا فإنه يستحق أن يدعى لهذا الملك الاستقلالي الذي اختص به واستقل به فنفى الله هذا الاحتمال بقول تعالى {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ} فنفى عنهم الملك .

أما الملك الذي هو بتمليك الله قال الله فيه {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} فيمكن أن يملك الإنسان الدنيا ثم يصبح ميتا لا يملك منها شيئا، أو يُتغلب عليه فيكون ما يملكه من الدنيا ملكا لغيره ، فهذا ملك بتمليك الله يعطيه من يشاء وينزعه ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء .

فيه احتمال آخر إن وجد فإن صاحبه يستحق أن يدعى . وهو دون هذا الاحتمال . وهو أن يكون مشاركا للمالك ولو في شيء من الملك فهل يوجد لله . تعالى الله . شريك في الملك ولو في شيء قليل منه قال تعالى {وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ} أي من يدعون من دون الله ، وقوله {فِيهِمَا} أي السموات والأرض ، فكل من يدعى من دون الله ليس شريكا مع الله ولو في ذرة من ذرات الملك .

إذن هو ليس مالكا ، ولا شريكا للمالك ، فلا يستحق أن يدعى . هناك احتمال ثالث إن وجد استحق أن يدعى: أن يكون ظهيرا للمالك وعوينا له أيّ يساعد المالك ، والمالك يستشيريه ويأخذ رأيه ، فهل يوجد في المخلوقات من هو كذلك ؟ حاشا وكلا .

ولهذا قال الله تعالى { مَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ } . أي وما لله منهم أي من يدعون فإن وجد عوين وظهير ومساعد فإنه يستحق أن يدعى فنفى الله ذلك .

إذن انتقت ثلاث أمور لا مالك ولا شريكا للمالك ولا عوينا للمالك . بقي أمر رابع من وجد فيه هذا الأمر استحق أن يدعى فنفاه الله الشفاعة الابتدائية بحيث أن يكون مخلوقا من المخلوقات يملك أن يشفع عند الله ابتداءً بدون إذن الله له .

فهل يوجد من المخلوقات من شأنه كذلك؟ أفضل بني آدم محمد صلى الله عليه وسلم ويوم القيامة إذا أراد أن يشفع كما جاء في الصحيحين يذهب تحت العرش ويسجد ويحمد الله بمحامد يعلمه الله إياها في ذلك الوقت ثم يقول الله له: ((يا محمد، ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع)) فيأذن الله له في الشفاعة ليس هناك من يملك أن يشفع شفاعة ابتدائية من دون إذن الله كائنا من كان ولهذا قال تعالى {وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} وهذا فيه إبطال عقيدة المشرك فيمن يدون من دون الله من أصنام وأحجار غيرها ويقولون {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ}

وفي آية أخرى { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى } فهنا قطع الاحتمال الرابع فانتفتت الأمور الأربعة : لا مالك ، ولا شريكا للمالك ، ولا عوينا للمالك ، ولا يملك شفاعة ابتدائية عند المالك . فمع انتفاء هذه الأمور الأربعة في كلٍّ من يُدعى فلا يستحق أحد أن يدعى من دون الله ، فهذا فيه إبطال الشرك ، وتقدير للتوحيد ، وبيان أن الله سبحانه وتعالى { هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } .

أيضا من البراهين ما أشار إليه المصنف بقوله :

وأن من تفرد بالكمال المطلق والنِّعم كَلِّها هو الذي تصلح له العبادة ولا تصلح العبادة إلا له .

هذا أيضا من براهين التوحيد ودلائله أنه تبارك وتعالى تفرد بالنِّعم لا شريك له في شيء من ذلك، وهذا أيضا يأتي في القرآن كثيرا مثل قول الله تعالى : { وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ } ، وقوله تعالى : { وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا } ، وقوله : { هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ } فهذه كلها براهين للتوحيد ، تفرد الله بالخلق وتفرد بالنعمة وبالعطاء والمنّ وبيده الخفض والرفع والعطاء والمنع ، هذا كله من دلائل التوحيد وبراهينه . وهذا في القرآن كثير .

ولهذا انظر ماذا قال إلياس في ردّه وإبطاله لهم عبادة غير الله سبحانه وتعالى { أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ، اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ } . والله تعالى أعلم وصلى الله وسلّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .